



الفصل الخامس الجاحظ ومفهوم اللفظ والمعنى

يعد الجاحظ من كبار كتاب العربية ، عرف بغزارة إنتاجه ، فقد ألف عددا ضخما من الكتب والرسائل، وكان أكثر مؤلفاته اتصالا بالنقد الادبي كتابيه (البيان والتبيين والحيوان) ، وله كتاب مفقود لو وصل إلينا لعرفنا آراءه في قضية مهمة في النقد الادبي ، وهي قضية النظم والتأليف ، وقضية المجاز في القران الكريم وتأليفه ، ذلك الكتاب هو كتاب (نظم القران).

النقد الادبي عند الجاحظ:

ليس للجاحظ كتابا متخصصا في النقد الادبي ، وإنما له آراء ، وملاحظات نقدية ، مبعثرة في ثنايا كتبه ورسائله ، لاسيما في كتابيه (البيان والتبيين والحيوان).

آراء الجاحظ في النقد الادبي :

تمثل آراء الجاحظ أصولا لنظريات قديمة ، تعالج ابرز القضايا النقدية ، ولعل الجاحظ لم يمنحها ما تستحقه من شرح وتفصيل وتمثيل ، ومن تلك القضايا النقدية - التي أشار إليها : مسألة القديم والحديث في الشعر العربي ، ومسألة اللفظ والمعنى ، فهاتان المسالتان ، صارت آراء الجاحظ فيهما أساسا للنقاد والبلاغيين الذين جاءوا من بعده.

موقف الجاحظ من النقد والشعر القديم والمحدث :

كان الجاحظ صاحب نظرة توفيقية في هذه القضية ، إذ لم يقصد بتفضيل قديم على محدث ، وقد نص على ذلك صراحة إذ قال: ((وقد راينا أناسا يبهرجون إشعار المولودين وسيستقطنون من رواها ، ولم أر ذلك قط ، إلا في راوية للشعر غير بصير بجوهر ما يروي ، ولو كان له بصر، لعرف موضع الجيد ممن كان، وفي إي زمن كان))، وقد أراد الجاحظ بذلك العلماء الرواة المتعصبين للقديم الذين لا يرى فيهم أهلا لنقد الأدب وتحليله وفهمه ، وابرز عناصر الفن فيه ؛ فهو يقول في هؤلاء اللغويين الرواة: ((طلبت علم الشعر عند الأصمعي فوجدته لا يحسن إلا غريبه ، فرجعت الى الاخفش فوجدته لا يحسن إلا إعرابه فعظفت على ابي عبيدة فوجدته لا ينقل إلا ما اتصل بالإخبار وتعلق بالايام والانساب)).

فالجاحظ هنا يرى ان المعرفة بغريب اللغة ، وقضايا النحو والاعراب ، ومعرفة أخبار الشعراء وأنسابهم وقبائلهم : علوم لا بد منها لدراسة الشعر والنقد ، ولكنها لا تؤهل صاحبها ليكون ناقدا أدبيا ، إنما الناقد الادبي هو ذلك الأديب الذي يلم بجوهر الشعر وتدوقه ويتحسس مواضع الجمال فيه ، فالجاحظ إذن لم

يتابع أولئك اللغويين المتعصبين ، بل أعلن رأيه صريحا ، في إعجابه بالجيد من الشعر ، قدميه وحديثه ، ويظهر ذلك واضحا من خلال عنايته ببشار بن برد وهو رنس المولودين المحدثين إذ يقول : ((وليس في الأرض مولود قروي ، يعد في المحدث ، إلا وبشار اشعر منه)) ، ثم انه فاضل بينه وبين عمرو بن كلثوم وهو من شجعان العرب وفحول الشعراء قبل الاسلام في معنى شعري لهما ورد في وصف غبار المعركة ولمعان السيوف فيها مفاضلة قائمة على مقدار إجادتهما في المعنى إبرازا فنيا جميلا ، حيث فضل بشار في قوله :

وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

كان مثار النقع فوق رؤوسنا

فضله على عمرو بن كلثوم في قوله:

سقفا كواكبه البيض المباتير

تبني سنابكهم من فوق اروسهم

ويرى الجاحظ أن هذا المعنى (وصف غبار المعارك) غلب عليه بشار ، فعمرو بن كلثوم وان سبق بشار بوصف الغبار المتصاعد من سنابك الخيل ، إلا ان بشارا قد اخذ المعنى وأجاد في تصويره أكثر من عمرو؛ ذلك مثال من أراء الجاحظ في شاعر من اشهر الشعراء المحدثين ، وقف منه موقفا منصفيا في بيان مكانته الفنية ، دون ان يأخذه التصب والهوى الى قديم أو محدث ، وهو بذلك يطبق ما دعا إليه من وجوب النظر الى الإشعار بمقياس الجودة ، والإبداع ، وليس بمقياس التقدم الزمني ، وهذا الموقف سنجد ناقدًا لاحقًا يتوسع في دراسته هو (ابن قتيبة) في كتابه (الشعر والشعراء).

قضية اللفظ والمعنى عند الجاحظ:

هذه قضية شغلت النقاد قديما وحديثا ، ومضمونها ان كل نص أدبي يحتوي فكرة أو مضمونا أو معنى يعبر عنه بصياغة لفظية ، فيتساءل النقاد عن سر الجودة في النص الادبي ، هل يعود الى فكرته أو مضمونه إي (معناه) أم يعود الى صياغته وطريقة التعبير عنه (إي الألفاظ).
لقد كان الجاحظ من اوائل من لفت الانتباه الى هذه القضية، وصرار رأيه فيها منطلقا وبداية لكل من خاض فيها من النقاد من بعده، حيث قال: ((المعاني مطروحة في الطريق ، يعرفها الأعجمي والعربي ، والبدوي والقروي ، وإنما الشأن في إقامة الوزن ، وتخير اللفظ ، وسهولة المخرج ، وكثرة الماء ، وفي صحة الطبع ، وجودة السبك ؛ فإنما الشعر صناعة ، وضرب من النسج ، وجنس من التصوير)).

هذه النظرية ما زالت بحاجة لمزيد من التعمق والتروي، في فهمها، ودراستها، وفي رصد أثرها في النقد العربي ، والكشف عن قيمتها الحقيقية ، إذ طالما تردد أن الجاحظ قصد من خلال كلامه هذا ، تقديم اللفظ على المعنى ، وتفضيله عليه ، وذلك ما توهمه كثير من الباحثين في فهم رأي الجاحظ هذا ، مكتفين بالجملة الأولى من كلامه (المعاني مطروحة في الطريق) ؛ ليستنتجوا أن الجاحظ من أنصار الألفاظ على المعاني ، وقد شكل هذا الفهم مدرسة في النقد العربي ، هي مدرسة أنصار الشكل أو اللفظ ، وكان ممن سار على أثره أبو هلال العسكري صاحب كتاب (الصناعتين).

والحق ان الجاحظ تجنب هذا الفهم في نظر الكثير من الباحثين ، ولم يقصد الى هذا الفصل الحرفي بين اللفظ والمعنى، ولم يفضل اللفظ على المعنى.